ها هنا حفرة

محمد العمراوي، المغرب

ها هُنا حفرةٌ
تبدو فوقَها السَّماءُ غِطاءً من البرونز
صَدِئاً من شدَّةِ تآكلِ غازاتِ القنابلِ
وفي غَيْمها
طيورٌ تحضنُ جثثَ صِغارِها
صغارُ طيورٍ تحضنُ آباءها
مطرٌ يهطلُ من أعيُنها خفيفاً
وقوسُ قزحٍ يتكَّون تحتَ أجْنحتها
مُتوِّجاً ما يصرُّ عليه القلبُ:
الرَّغبةُ في كتابةِ النَّفَسِ
وقراءةِ الفضاءْ.

ها هُنا حفرةٌ
يركضُ فيها فرسُ الموتِ
وراء النَّاس والأشياء وأمامها
مُقْبِلاً مُدْبِراً
يَدسُّ عروقَ أشجارِ العائلاتِ
ولا أحد يستطيعُ ترويضَهُ
كلُّ الأغصانِ والثمارِ تسقطُ قبلَ الأوانِ

ويتحوَّلُ كلُّ شيءٍ إلى لا شيء

ويعرِّفُ اللَّاشيءُ كلَّ شيءٍ

حين يولَدُ ثم يندثرُ

مثل البرْقِ حينَ يتسلَّلُ سريعاً

في صدْع السَّماءْ.

ها هُنا حُفرةٌ

تتدلَّى في فراغها أبوابٌ

فَقدَتْ وظيفتَها

في الانفتاحِ على العالَمِ

أو الانغلاقِ حِرْصاً على الحميمية

أبوابٌ متدليةٌ تدلُّ على غيابٍ جَبْريٍّ

وراءها وأمامَها تركضُ

أحجارُ الحُطام

وأدواتُ يوميٍّ رميمٍ بالٍ.

ها هُنا حفرةٌ

تنطلقُ فيها طلقاتُ النَّارِ وطلقاتُ الضَّحكِ

لقنَّاص مُحْترف اعتباطاً

وتتزامنُ في جسدِ طفلٍ كان يَمشي في الشَّارعِ

ناسياً خوفَهُ

ويتزامَنُ سقوطُ الطِّفلِ بصرخةِ القنَّاص

المُتباهي بإنجازه:

"لقدْ أصبتُ الطَّريدة!"

ويصفِّقُ منتظراً إعادةَ التَّمرينْ.

ها هُنا حُفرةٌ
انفتحتْ مثلَ جمجمةٍ متصدِّعةٍ
وانعرجتْ فيها عروقُ دماغٍ
أُصيبَ باسْتنزافٍ
فانْسابت أنهارُ دمِهِ وانسلَّتْ منَ الثُّقوبِ
لتصُبَّ في بحرٍ سُميَّ بحراً أحْمر.

ها هُنا حُفرة
تَبْرُزُ فيها خطاباتٌ تبوحُ
- في صوتٍ مبحوحٍ يَنْشبُه السُّعالُ -
بِفَشلِها على تفكيك العُقد
وتتجادل في جدليَّة مُرهبة
يتربَّصُ فيها المعنى بالشَّكل
والشكلُ بالمعْنى
وكلُّ كلمةٍ تنظرُ إلى الأُخرى
بتحفُّظٍ وخوفْ.

ها هُنا حُفرةٌ
تُصابُ فيها لغةُ المعلِّقِ السِّياسي
بنوباتٍ من الصَّرعِ فيعضُّ لسانَهُ
وتتشنَّجُ جُمَلُهُ ويسيلُ لُعابُهُ
فتنْتفخ الرَّغوةُ وتغطِّي الشَّاشةَ كُلَّها.

ها هُنا حُفرةٌ

يَحْمِلُ فيها القاتلُ قناعَ الضَّحيةِ

قناعاً أبديّاً

لا تُنازعهُ فيه ضحيةٌ أخْرى

ويُوحِّدُ القناعَ والوجهَ

في انصهارٍ روحاني مفْرطٍ في اللَّغوِ

ويُحمِّلُ الضَّحيةَ قناعَ القاتلِ

قناعاً أبديّاً حزيناً مثل بهلوانٍ حزينْ.

ها هُنا حفْرةٌ

يدخلُ فيها جُنديٌ حاملاً تفاهةَ شرِّهِ

على كتِفه كبندقيةٍ

مستعدّاً لإطلاقها بشراسةٍ

في قلب طفلٍ ما

بعدَ أن عانق صباحاً بودٍّ

ابنتَه وكلبَه وقطَّتَهُ

قائلاً: "سأقوم بواجبي وأعودُ إليكمْ."

ها هُنا حفرةٌ

تلفُّ فيها آلاتُ الدُّخان

الجوقةَ المأساويةَ الأخيرة

لطروادياتِ يوريبيديس

وتنبؤات كاسندرا التي

لا يصدِّقُها أحدْ.

ها هُنا حُفرةٌ

تَمتزجُ في سِرْبِها

مُقتطفاتٌ من الكُتُبِ المُقدَّسةِ

وأقوالٌ مَبتورةٌ

لسُقراطَ وبروتاجوراس

وسونْ تْزو وابن خلدون وميكيافيل

لصناعةِ بلاغةٍ أكْثرَ قُوةً

وفَنٍّ حربٍ أكثرَ توَغُّلاً في الغُموضْ.

ها هُنا حُفرةٌ

يطلعُ منها جوزيف ك.

حافيَ القدميْن

في عيد ميلاده السَّادس والسبعين

كما في فيلم بالأبيضِ والأسود

وعلى رأسه قُبّعةُ كافكا

يضغطُ عليها منحنياً

عسى أن يتجنَّبَ شظايا قذيفةٍ ما.

ها هُنا حُفرةٌ

تتوالدُ فيها الحُفَرُ دوائر

حفرٌ

تتسلَّسلُ وتكرَّرُ فيها
عملياتُ الضَّربِ والطَّرحِ والقِسمةِ
في حسابٍ مشْبوهٍ
وخوارزميةٍ تتجادلُ فيها الوِلادةُ والمَوتُ
كضفيرةٍ مَطريَّةٍ يتقاسمُ شفافيَّتَها الغيبُ

حفرٌ منَ المشايِم
انفصلتْ مبكّراً عن جدران الأرْحام

وأخرى يتوالد فيها القَتَلةُ
وتراهم يَقْفزونَ كلٌّ بحَبْله السُّريِّ
على حدِّ سكِّينٍ
يمتدُّ شرقاً من صدر أمٍّ
على وَشكِ إرْضاع طِفْلها
إلى حُنجرةِ رَجُلٍ، غرباً،
واقفٍ على عتبةِ فصلٍ
وبين أصابِعه
دمٌ يقطرُ من طبشورةٍ جامدةٍ
لم تستطعْ كتابةَ تاريخِ اليوم
وعنوانَ الدَّرس على السَّبورة

وفي الوسط حُفْرةٌ
يقف على بابها دانتي اليغييري
وأبو العلاء المعرّي كلٌّ من جهةٍ

على هيئةِ أبي هولٍ مُفزعٍ
رافعاً لافتةً
يكتبُ عليها بخطٍّ قوطِيٍّ سائلٍ
وخطٍّ كوفِيٍّ مثلما في فيلمٍ مُرعِبٍ:
ها هُنا تتداخلُ دوائرُ
الغُفران واليأسِ
وتنْحفر عميقاً فيمن يَدخُلها.

ها هُنا حُفرةٌ
تَفْتحُ هُوَّتَها لتهوي فيها هويَّات
منتفخةٌ ومُتورِّمةٌ محفوظةٌ في قواريرَ
منَ الفورمالين والأثانول.

ها هُنا حُفرةٌ
تُبترُ فيها أرجلُ العصافيرِ
دون تخديرٍ
وتُعلّقُ فوق حبلِ صُراخهم كدُمىً
قدْ يلعبُ بها أطفالُ الجُندْ.

ها هُنا حُفرةٌ
يحدثُ أن يعُمَّ فيها
الصمتُ بعد الانفجار
ولا يبقى إلَّا نوتة طويلة ومستمرة
كتلكَ الّتي يبُثُّها

تلفزيونٌ باطلٌ عن العَمل

وعجلةُ درَّاجةٍ منقلبَة بين الأنقاض

وشخيرُ شريط صامت

يبثُّ صوراً بالبُنِّيِّ الدَّاكنِ

لذاكرةٍ قديمةٍ

وخُطى رجُلٍ عجوزٍ

حدَّبتْهُ الأسئلةُ

يتلو أسماءَ المجازر التي

تُرقِّم سيرتهُ

في حذائه الضاحكِ حجرةٌ

تجعلهُ يَعرجُ قليلاً

وكلُّ العناصر الأربعةِ

تمرُّ في آداجيو لامونتوزو

لحركةٍ رابعة أخيرةٍ

لسمفونية مأساويةٍ أخيرةٍ

- وَحدَه الحذاءُ ضاحكٌ

ينتظرُ أن تنبتَ بين أسْنانهِ

زهرةٌ ما.

ها هُنا حفرة

يعلوها وجهٌ مستديرٌ

يحملُ قناعاً جراحيّاً تعلوه عينان شَرِهتان

تعْلو أهدابَها دُودَتا قزٍّ حديديتان

هائلتان مُتحالفتان تنشرُ فُقاعاتٍ

من القِصصِ المُصوَّرةِ الهزْليَةِ:

"تهيَّأوا!
إنَّنا سنُسقِطُ مطراً يُسطِّحُ سُطوحَكم
في سَبْعِ دقائق!
وقد يحدُثُ غبارٌ أو هدمٌ
يكون لبناءٍ جديدٍ لأبنائنا فقط"

أو
"نُنذركم أنَّنا لا نقصدُ بقنابِلنا
المنازلَ، ولكن فقط الأقْبية!"

أو
"نعتذرُ مرَّةً أخرى عن كوْنِ الخَسائر
والضحايا الجانبيَةِ أكثرَ ممَّا كان
في نيَّتنا الحَسنة!"

أو
"المرجو أن تَهْجُروا الأمْكنة
فقد فخَّخْنَاها دون قصْد!"

أو
"سنبني فوقَ مقابرِكُم
فنادقَ هلتون رائعة للسيَّاح

ومطاعم للمُستوطنين

ومتاحفَ للتَّسامح والكرامة الإنسانية

تُعرضُ فيها أعمال ذاكرتنا المقدَّسة

شكراً لتفهّمكم!"

ها هُنا حُفرةٌ

كقفصٍ صدريٍّ تُسجَنُ فيه

حرائقُ البلاستيك

ورمادُ أشجارِ الزَّيتونِ

وجُزيئياتُ الأدْخنةِ المُشِعَّةِ

ودقَّاتُ القلوبِ اليَتامى.

ها هُنا حفرةٌ

حُرِّفَتْ حُروفُها ومَعانيها

لتكونَ فَرْحَةً للقنَّاصِ

وقَرْحةً في جوفِ الطَّريدةِ

وفُرْجَةً لإلْهاء جمهورٍ مُنتخَبْ.

ها هُنا حُفرةٌ

تخْدشُها حفْرياتٌ

بأظافر طيورٍ متنافسةٍ

باحثةً عن خرائطَ

وجينيالوجياتٍ وهياكلَ عظْمِيَّةٍ

لملوكٍ وملائكةٍ وجيوشٍ وحُكماء

وقادةٍ وصروحٍ عظيمةٍ
كعلاماتٍ تؤكد الأسبقية في الوجودِ
ولا تجدُ إلا بعضَ خُطوطٍ مُبْهمةٍ
يَعبرُها خيْطُ دمٍ رقيقٍ
من الصعب مُتابعتُه
وبعضُ حروفٍ مبعثرةٍ:
حاء، ميم، أَلِفٌ ممدودة أو مقصورة
(ترسمُ: حمَّى، حِماية، مَحْوٌ)
صوتٌ ما يقولُ:
من شِدَّةِ حُمّى رغْبتنا في حمايَة
الخطوطِ نكادُ مَحْوَها.

ها هُنا حُفرةٌ
تجلسُ امرأةٌ على حُطامِ مَنزِلها
قائلةً بصوتٍ مُنْخفِضٍ:
لمْ أكُنْ أتصوَّرُ أنَّ مُغتَصَبَ الأمْسِ
كان يُعدُّ أرشيفاتِ ذاكرتِهِ
ليُركِّبَها في مونتاجٍ سنيمائيٍّ مُدهشٍ
حتّى يستطيعَ أحفادُه اليومَ
إيجادَ دوافعَ نبيلةٍ فيه
تُبرِّرُ طرحي مُقيَّدةً على سريرِ
ماضيهم ويغْتصبوني أمامَ الملأ.

ها هُنا حفرةٌ

لم يعد فيها للنَّفْسِ مُتّسَعٌ لانتظارِ جودو

ولم يَعُدْ للرِّئةِ متَّسَعٌ للأوكسيجينِ

بينما رائحة بول وبائِيٌ نَشَرت

في الفضاء أجنحَتَها كخفافيش سوداءَ

واجْتاحت بُقعٌ من البنزينِ

ماءَ البِرك الرَّاكِدِ

راسمةً بحيراتٍ معزولة

ودخلَ الكربونُ قواريرَ الماءِ

ليُعطيها طعْمَ الليلِ

وحمُضَ الحليبُ المُسْتوردُ

إذْ تجاوزَ تاريخَ استعمالهِ

منذُ سنواتٍ وأصبحَ الأخضرُ

أملاً متعفِّناً كقطعَةِ خبزٍ قديمٍ

وبدأ البَعضُ يرقصُ رقصةً أخيرةً

رقصةَ دجاجةٍ مذبوحةٍ

فوق تلِّ البارحةِ وبَدأ البعضُ الآخرُ

يلتقطُ هنا وهناكَ نُكتاً

وضَحكاً يدْهَنُ بها وَجهَهُ

ليَحميهِ منَ المَحوْ